دور الثانوية
في التنشئة الاجتماعية للتلميذ المراهق

أ. ولدغويل خليدة
أستاذة في علم الاجتماع

مقدمة:

إن التلميذ هو فرد في الثانوية باعتبارها مؤسسة تربوية، تؤثر في شخصيته وترتبط الشخصية ارتباطا وثيقا بالأنماط الثقافية للمجتمع، إذ تسهم في تثبيت سمات معينة في الشخصية، كما يكتسب التلميذ منها سمات شخصيته من العناصر الثقافية السائدة في المجتمع كالبواعث والقيم والدوافع الاجتماعية وهي سمات كلية وعامة، كما أنه يشارك أعضاء مجتمعه في "سمات شخصية" مشتركة ويسميها "كلوكهون" بـ«السمات المشتركة»، كما أن كل سلوك "دافع" يصدر من قيم اجتماعية، باعتبار أن السلوك في كل جماعة أو زمرة يتسم ببعض المميزات الثابتة والخصائص المحددة، فالمراهق يكتسب سمات شخصيته من خلال المجتمع والمؤثرات والخصائص الثقافية للمحيط الاجتماعي الذي ينشأ فيه.

دور الثانوية في التنشئة الاجتماعية للتلميذ الثانوي:

تسهم الثانوية بكل وضوح في التنشئة الاجتماعية للمراهق إذ إنها المؤسسة الاجتماعية الثانية بعد الأسرة التي نشأ فيها واكتسب منها أنماطا سلوكية تميز شخصيته، فهي مؤسسة تربوية تلي مؤسسات مؤسسات تربوية أخرى حسب التدرج العمري والمرحلي للتلميذ وهي المدرسة الابتدائية فالمتوسطة.

الثانوية: "هي مؤسسة اجتماعية، أنشأها المجتمع بقصد تنمية شخصيات أفرادها تنمية متكاملة.. ليصبحوا أعضاء صالحين ومنتجين فيها... فهي المكان الذي يتم فيه التعليم والتعلم، والذين يقومون على أمرها، مديرين ونظارا ومعلمين، يدركون هذه الحقيقة، ويعملون من أجلها، فالنشاط التربوي هدفها وكل ما تقوم به لتقديم التعليم مبني على أساس قصدي له

مسؤوليته... [01] ص 76، إن دور المدرسة الثانوية لا يقتصر على شحن عقل التلميذ بأفكار ومفاهيم نظرية من خلال التعليم، بل إنها تقدم للمراهق أسلوب الحياة ونموذج السلوك.

فالمدرسة هي البيئة الثانية التي يواجه الطفل فيها نموه وإعداده للحياة المستقبلية، والتي تتعهد القالب الذي صاغه المنزل لشخصية الطفل بالتهذيب والتعديل بما يهيئه من نواحي النشاط لمرحلة النمو وهو فيها، وفي هذا المجتمع الجديد مجال واسع للتدريب والتعليم والتعامل مع الغير والتكيف الاجتماعي وتكوين الأسس الأولية للحقوق والواجبات والقيم الأخلاقية [02] ص53، فإذا كان دور الأسرة يبدأ في التنشئة منذ الولادة والمرحلة التي تسبق سن القبول في المدرسة، فإن دور المدرسة يأتي في التنشئة الاجتماعية والتعليم.

عامل آخر للتنشئة المدرسية، فمن جهة مساهمتها في خلق شروط ملائمة لإنشاء وعمل جماعة الرفاق، ومن جهة أخرى تحفز بالمقابل للأدوار الوظيفية للبالغين فالتلميذ المراهق يكتسب من خلال الثانوية نماذج سلوكية من جهة ومن جهة أخرى يتشرب منها عادات وتقاليد ويلتزم بالأعراف التي تميز مجتمعه ليصبحوا بذلك أفرادا صالحين قادرين على بناء المجتمع.

فهي التي أوجدها المجتمع للإشراف على عملية التنشئة الاجتماعية والأخلاقية والثقافية. ومما لا شك فيه أن للمدرسة تأثيرا فعليا مجديا على سلوك الأفراد وفق ما يرسمه لها المجتمع كما يتجسد في سلطاته التعليمية العليا. والمدرسة من حيث هي تنصب وظيفتها الرئيسية على توجيه سلوك الناشئة، ويقاس مدى تحقيقها لوظائفها بمدى التغير الذي تنجح في تحقيقه في سلوك أبنائنا [03] ص19.

للثانوية وظائف متعددة إضافة إلى التنشئة الاجتماعية فإنها تقوم بتوجيه المتعلمين للقيام بمهن حسب إمكاناتهم تؤهلهم لوظائف وأدوار مستقبلية وتمكنهم من الاعتماد على النفس وتساعدهم على بناء وتكوين أسر.

للمدرسة وظيفة مزدوجة: الإسهام في إعداد الشخص وتأهيله لإحدى المهن فهي تضع تحت تصرف الأسرة وسائل تربوية تكميلية وبخاصة تعليم الأطفال التعميم، ويقصد بالتنشئة الاجتماعية التي تقوم بها الثانوية: "الأساليب التي يتعامل بها المدرس (المدرسة) إزاء التلاميذ في حجرة الدراسة، سواء تعلق الأمر بعملية نقل القيم والمعايير والمهارات والخبرات الاجتماعية والعلمية والثقافية، أم تعلق الأمر بضبط المدرس (المدرسة) لنظام حجرة الدراسة والحفاظ على الهدوء وتهيئة ظروف التعلم [04] ص17.

فالثانوية تلعب أدوارا هاما في التنشئة الاجتماعية أهمها ما يلي:

1- تأخذ الثانوية على عاتقها مهمة تهيئة التلاميذ تهيئة اجتماعية، من خلال نقل الثقافة بمعانيها الواسعة والمعقدة، "و لذلك يجب أن تحتوي المناهج الدراسية على هذا التراث الثقافي، على أن يتم تقديمه بصورة مقبولة ومفهومة... وبما أن التراث الثقافي مركب ومعقد ومتشابك، لا بد أن يقدم بطريقة تتناسب مع مراحل النمو المختلفة للأجيال، على أنه كلما اضطرد النمو كان من الضروري أن يقدم التراث بصورة أكبر، وأكثر تعقيدا [01] ص84، كما أنها تسهم بدور كبير في تطوير التراث الثقافي وتجديده بتحليلها وإخضاعها للأسلوب العلمي.

إضافة إلى أنها تمنح الشعور بالانتماء، أي الشعور بنحن، فهي تلقنهم إلى جانب العلوم والمعارف قيم وثقافة وتاريخ المجتمع الذي يعيشون فيه.

2- تلعب الثانوية دورا حيويا في تعليم الاتجاهات والمفاهيم المتعلقة بالنظم السياسية، كالتأكيد على الامتثال للقوانين والسلطة، فهي تحقق إسهاما واضحا في التكيف الاجتماعي للتلميذ مع الوسط الاجتماعي.

3- تعلم التلميذ المعلومات والمهارات المتعلقة بالطريقة التي يعمل بها المجتمع، ويؤدي ذلك لإعداد التلميذ للتصرف وفق الأدوار التي يقوم بها العضو الراشد في المجتمع.

فهي تؤثر إيجابيا في تكوين الفرد تكوينا نفسيا واجتماعيا، كما تستطيع أن تخلق لتلاميذها شخصيات متوافقة مع نفسها ومع المجتمع [01] ص85.

4- تلعب دورا أكبر في تعليم ضبط انفعالاتهم، وكيفية حل المشكلات بطرق علمية.

5- تشجع القدرات الخلاقة لتلاميذها، كما تأخذ على عاتقها مهمة القيام بدور رئيسي في عمليات التجديد والتحديث، والتلميذ يتقمص السلوك الاجتماعي من خلال ملاحظته لسلوك الأستاذ، ومن خلال العلاقات الاجتماعية، داخل حجرة الدراسة، وفي هذه الحالة قد يتعلم الفرد السلوك السليم، وقد يكون العكس بحيث يكون السلوك الذي يتعلمه التلميذ هو عبارة عن ردود أفعال داخلية وخارجية إزاء أسلوب الأستاذ كما يدركه التلميذ [04] ص39، فالفكرة التي تقوم عليها المدرسة هي التنشئة والتنمية، بمختلف جوانبها حيث يقول جون ديوي، في ذلك: "إن بإمكان المدرسة أن تغير نظام المجتمع إلى حد معين، وهو عمل تعجز عنه سائر المؤسسات الاجتماعية"، كما أن الثانوية: هي مؤسسة منوطة بتحقيق التربية السلوكية لتلاميذها بحيث تبصرهم بالقيم والسلوكات المرغوب فيها.

الثانوية والضبط الاجتماعي للتلميذ الثانوي:

تستخدم الثانوية أسلوب الضبط الاجتماعي بهدف الدعم والحفاظ على النظام القائم في المدرسة وإخضاع أفرادها (تلاميذ، معلمين...)، للقوانين الخاصة بها وذلك لما تقتضيه وظيفتها المتمثلة في تعليم وتربية الأفراد.

إن ما يتيحه كل مجتمع من تربية لأبنائه يتوقف إلى حد بعيد على طبيعة تكوين ذلك المجتمع وهذا بدوره يؤثر تأثيرا مباشرا على اتجاهات الفرد والأفراد وديناميتهم، فالجو الذي تهيئه المدرسة هو بطبيعة الحال انعكاس للجو الاجتماعي على نطاق شامل [05] ص 456، وتستخدم الثانوية أسلوب الضبط الاجتماعي بهدف الدعم والحفاظ على النظام القائم في المدرسة وإخضاع أفرادها (تلاميذ، معلمين...)، للقوانين الخاصة بها، فهي التي تعمل على توجيه وتقويم سلوكاتهم داخل المؤسسة للحفاظ على النظام العام لها، ويختلف أسلوب الضبط الممارس من مؤسسة إلى أخرى ولكل نمط منها انعكاساته، فأسلوب التساهل يساعد على خلق الفوضى، أما الصارم فهو يحد من حرية التلاميذ ويشعرهم بالانزعاج.

ويأخذ الضبط الاجتماعي الممارس على التلاميذ في الثانوية بهدف تقويم سلوكهم اتجاهين أساسين، الاتجاه الأول الضبط الممارس من طرف إدارة الثانوية على التلاميذ، الاتجاه الثاني الضبط الممارس من طرف المعلم على التلميذ داخل القسم، وأحيانا كثيرة يكون النظام المدرسي الصارم سببا في شعور التلاميذ بالاستياء والسأم وتقييد الحرية وبالتالي تسوء صحتهم النفسية، كما أن ترك الحبل في الغالب للتلاميذ ليفعلوا ما يشاؤون داخل المدرسة، يصيبهم بالتسيب، والإهمال واللامبالاة، مما يترتب عليه عواقب وخيمة كالهروب والتسرب من المدرسة وبالتالي الفشل في تحصيل الدروس المقررة ومن ثم الرسوب والفشل [01] ص109.

ومن أهم أسباب فقدان السلطة الضابطة في الثانوية هي: كثافة التلاميذ المرتفعة، عجز المعلمين على تحمل مسؤولية الإشراف اليومي، ضعف الإدارة المدرسية وتفتت مسؤولياتها.

إن الصرامة الشديدة في ممارسة الضبط الاجتماعي داخل الثانوية يخلق سلطة ديكتاتورية وفق ما أشار إليه "أبو الفتوح رضوان" وآخرون في كتابه "المدرس في المدرسة والمجتمع": في أن هذه السلطة تفرض نظاما صارما جامدا يقضي على كافة الحريات، فهي تؤمن بأنه لا يكون هناك نظام إلا إذا انعدمت الحرية، ولذلك ينبغي على الأفراد الإذعان لها دون إبداء الرأي، أي إنها سلط تمجد الطاعة العمياء، وتلجأ هذه السلطة لتحقيق أهدافها إلى وسائل القمع والإرهاب والتهديد والوعيد، وتكثر من العقاب، وتقلل من الثواب.

مثل السلطة فيها الناظر أو المدير، الذي يعد نفسه اليد العليا، فهو يتلقى الأوامر بطريقة عمياء... يفرضها على المجتمع المدرسي... بغض النظر عن ظروف المدرسة أو اقتناع المشتغلين فيها، وفي مثل هذا الجو الدكتاتوري يتحكم الناظر في المعلمين، ويتحكم المعلمون في التلاميذ الذين لا يكون لهم سوى الإذعان والخضوع، وفي مثل هذا الوضع يتمثل عدم استشعار المعلمين لذة العمل، وفتور التلاميذ نحو المدرسة وبالتالي تكثر مشكلاتهم، بل ويكرهونها، فتنمو لديهم روح التمرد [01] ص122.

أما في علاقة المعلم بالتلميذ فإن سلوك التلميذ اللاسوي الذي يفتقر إلى الضبط يقابل بالعقوبة البدنية، من أجل تحقيق الهدوء والسكون من جانب التلاميذ، فتكون حركاتهم وأقوالهم بإذن المعلم، إن استعمال الضرب والتجريح والشتم واستخدام أساليب العقاب البدني كأسلوب للضبط الاجتماعي داخل المؤسسة التربوية من طرف الإدارة أو المعلم على التلاميذ لا تخلق شخصيات سوية وناجحة، بل تجعلهم يحسون بنوع من العبودية النمطية، وتحرمهم من اكتشاف أنفسهم، حيث أثبتت الدراسات أن الضرب لا يفيد في تعديل السلوك الرديء وغير المرغوب فيه، وأنه يؤدي إلى تثبيت السلوك الرديء.

إن استخدام أسلوب النقد القاسي والمباشر أو التجريح والإهمال، ليس أسلوبا مناسبا لمعالجة المشاكل المدرسة والصفية عند الطلبة... فمثل هذا الأسلوب يضعف ثقة الطالب في نفسه، ويعمل على خلق صورة ضعيفة عن الذات، والشعور بالإحباط والفشل [06] ص102، وعليه فلا بد من إدارة الثانوية والمعلم أثناء ممارسة الضبط الاجتماعي الموازنة بين الحرية والانضباط الصارم بأساليب ديكتاتورية.

تقاسم الأدوار بين الأسرة والثانوية:

إن الثانوية والأسرة كلاهما مؤسستان لا غنى لإحداهما عن الأخرى ولا يمكن لإحداهما القيام بوظائفها في التنشئة دون الرجوع إلى الأخرى كما أن كلاهما تنتميان إلى بيئة اجتماعية واحدة وتكسبان المراهق ثقافة واحدة.

كثيرا ما تنتقد المدرسة دون أن نتحمل مسؤولياتنا (وهو نقد في الغالب صحيح) لأن النظام المدرسي يمثل منشأة ذات أبعاد ضخمة وهي لهذا تلقى صعابا في تتبع التطور بالغ السرعة للحاجات المهنية والاجتماعية [07] ص67، رغم ذلك فإن الثانوية هي البيئة الاجتماعية التي يتم إعداد التلميذ من خلالها إعدادا صالحا يؤهله لمواجهة الحياة الاجتماعية بنجاح، وتهيئتهم للقيام بأدوار في حياتهم الاجتماعية.

إن دور المدرسة في تربية المراهق يأتي بعد دور الأسرة حيث إن دورها لا يكتمل إلا بما تضيفه المدرسة من مبادئ تسهم في تشكيل شخصية المراهق، والواقع يشير إلى تعرض المراهق لثقافات وتأثيرات خارجية كثيرة، بالصورة التي قد تؤثر على تكوين شخصيته وهو في ذلك يكون أكثر حاجة إلى دور الوالدين في حياته لكي تتم اختياراته بالصورة التي تجعل شخصيته متكاملة مع المجتمع ثقافيا واجتماعيا ووظيفيا، وإذا كانت المدرسة تلعب دورا في جعل المراهق يتمثل قيم وأنماط مجتمعه فذلك يعني أن المدرسة والأسرة يتكاملان بنائيا ووظيفيا لدعم الأداء الوظيفي للنظام التربوي العام في المجتمع [02] ص73، وعليه فتعاون الأسرة مع الثانوية من أهم الدعامات التي تساعد على تنشئة المراهقين تنشئة سوية، فالعديد من الآباء الذين يرسلون أبناءهم إلى الثانوية ويعتقدون أن واجبهم التربوي ينتهي هنا. "وما أكثر الآباء الذين يهملون مشكلات التوجيه المدرسي ويتخذون قراراتهم وفق رغباتهم وليس وفق حاجات الطفل، فالمراهق الذي تفرض عليه مجهودات دراسية يكرهها، يرد على ذلك بالانطواء على ذاته وبمعارضة دائمة تشل النمو المتناسق لشخصيته ويصبح تكيفه الاجتماعي في خطر [07] ص73. حيث يعتقد هؤلاء الآباء أنه لم يبق عليهم سوى أن يكفلوا أبناءهم ويوفروا لهم المأكل والمشرب والملبس والمأوى وتدبير النفقات المدرسية، دون أن ينتبهوا إلى حضورهم بصفة دورية إلى الثانوية، بغرض التعاون مع إدارتها ومعلميها، فالآباء مسؤولون أكثر من الطفل عن تكيفه المدرسي وعليهم أن يدمجوا المدرسة في نطاق عملهم الخاص وأن يستخدموها وسيلة من وسائل تكوين الشخصية، وأن يسير جهدهم التربوي في اتجاه مواز لاتجاه جهد المدرسة. جهد يبذل من أجل تعويد الصغار على النظام [07] ص66. إذ إن الثانوية لا يمكنها وحدها أن تكسب التلاميذ الخبرات اللازمة وتحل مشاكلهم وتدرك نقائصهم، دون تعاون مع الأسرة، فمهما بذلت من جهد يظل عملها ناقصا ومبتورا، ما لم تتح لها الفرصة للاتصال بأولياء أمور التلاميذ، وتحيطهم بالإيجابيات والسلبيات، وبذلك يتسنى للطرفين، الأسرة والثانوية، التفاهم والتعاون لاتخاذ الأساليب الأنسب التي تتوافق مع طبيعة التلميذ وميوله وقدراته وإمكاناته. إن عدم التعاون بين الأسرة الثانوية في أن تحمل كل واحدة منهما الأخرى مشاكل التلميذ، وتبادل الاتهامات قد يدفع إلى تنمية السلوك غير السوي لدى التلميذ، خاصة أن هذه الفترة تتوافق والمراهقة، مما قد يدفع بالتلميذ إلى الانحراف كالإقبال على التدخين، أو المخدرات، أو الهروب من الثانوية، كما على أولياء الأمور أن يكونوا على اطلاع على الجو المدرسي السائد في الثانوية، وعلى الثانوية أن تكون على اطلاع على الأوضاع الاجتماعية السائدة في المنزل حتى يتسنى لكل طرف التخفيف عن الآخر والقيام بواجبه على أكمل وجه.

الجماعة المرجعية والتلميذ الثانوي:

1-تحديد الجماعة المرجعية للتلميذ الثانوي: يميل المراهق إلى الاستقلال والاعتماد على النفس ويظهر ذلك في محاولاته اختيار أصدقائه ونوع ملابسه، ودراسته، وتحديد ميوله بنفسه، الميل إلى الالتفاف حول ثلة معينة، حيث يندمج مع مجموعة من الأصدقاء صغيرة العدد ويبدي الولاء والانتماء والتقيد بآرائهم والتصرف وفق أهدافهم، وهكذا يصبح الأقران بالنسبة إليه ما يسميه علماء النفس المجموعة المرجعية، وهي التي يرجع إليها المراهق يحكم من خلالها على أفعاله وأقواله حيث يجد **الراحة** والمتعة والفهم لسلوكه من قبلهم، "وإذا ما رفض من المجموعة يكون ذلك نوعا من العقاب، وحينما يقبل تكون هذه مكافأة له وبطرده من المجموعة لا يفقده مركزه فقط ولكن يفقده هويته، لا يدري إلى من ينتمي وإلى أين يذهب" [08] ص 536، يتعلم الفرد قيم الجماعة وقوانين الجماعة، ويتشرب أيديولوجيتها وبذلك يصبح على دراية أكثر بثقافة المجتمع التي لا يستطيع معرفتها إلا عن طريق جماعة الأصدقاء، وقد تكون هذه الثقافة مفيدة لتكوين الشخصية كما قد تكون ثقافة سفلية حسب طبيعة الجماعة [04] ص39، كما أنها تساعدهم على تبادل الخبرات في وكيفية مواجهة العقبات الاجتماعية، فهو يجد لديهم التقدير وإظهار المهارات وتأكيد الذات واكتشاف القدرات واكتساب المعلومات التي يعجز عن اكتسابها من الآباء والمعلمين بسبب ضعف العلاقة بين المراهق وأسرته في هذه المرحلة، فالجماعة المرجعية (groupe de référence) هي: "إطار نفسي اجتماعي يسمح بإقامة علاقات أفضلية بين فرد ومحيطه، تقدم بنية مقارنة انطلاقا من معالم مشتركة، وتعطي دوافع وتطلعات تسمح بتغيير التصرفات، موجهة المواقف الاجتماعية وفق تراتب من القيم، تقوم الجماعة المرجعية بوظائف التماهي، إيجابية أو سلبية، ووظائف مجانسة وهي تستخدم لاستباق الرضا الاجتماعي" [09] ص514، وفي معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية للدكتور أحمد زكي بدوي فـ: "هي الجماعة التي يلجأ إليها الفرد لمعاونته في تحديد معتقداته واتجاهاته وقيمه وتوجيه سلوكه ويشعر الفرد بنوع من التوحد في جماعته المرجعية دون أن يحتاج إلى أن يكون عضوا عاملا بها" [10] ص394، أما في قاموس علم الاجتماع لمحمد عاطف غيث يعرفها كما يلي: "... جماعة اجتماعية يشعر فيها الفرد بالتوحد ويطمع أن يربط نفسه بها ويستمد الفرد من جماعته الرجعية معاييره واتجاهاته وقيمه"[11] ص 378.

صك هربرت هيمان مصطلح جماعة مرجعية في كتابه "سجلات علم النفس" الصادر عام 1942، ليشير إلى الجماعة التي يقيم الفرد سلوكه ومواقفه في ضوئها، وقد ميز هيمان بين الجماعة ذات العضوية التي ينتمي إليها الناس بالفعل وبين الجماعة المرجعية التي تستخدم كأساس للمقارنة [12] ص 396، كما أدخل مظفر شريف مصطلح الجماعة المرجعية في

الكتابات التي تتناول الجماعات الصغيرة في كتابه المدرسي "الموجز في علم النفس الاجتماعي" الذي ظهر عام 1948، استخدم هذا المصطلح بالمقابلة مع مصطلح آخر هو جماعة العضوية. ويشير المصطلح الأخير إلى الجماعة التي ينتمي إليها، في حين إن المصطلح الأول يشير إلى الجماعة التي تؤثر في سلوكه [13] ص8، إذ تتكون أغلب هذه الجماعات المرجعية من زملاء الثانوية، خاصة أن المراهق هو تلميذ بالثانوية يقضي جل وقته فيها وبحكم التقارب المكاني بين الأفراد الذي من شأنه أن يشجع التلاميذ على الاتصال وتبادل المعلومات والآراء وبالتالي يشجع على قيام علاقة بينهم قد تتطور إلى علاقة صداقة وتكوين ما يعرف بالجماعات المدرسية إذ لا شك في أن الجماعات المدرسية تتألف من أفراد أتوا راغبين إلى مؤسسة معينة لغرض معين وهو التعلم واكتساب المهارات. والجماعات بطبيعة الحال تضم أفرادا يتأثر بعضهم ببعض [14] ص455 يعتبر الطالب في المدرسة عضوا مهما بالنسبة إليه وتتألف المجموعة هذه من زملائه في الفصل، وعلى طبيعة علاقته بأقرانه يتوقف مقدار ما يمكن تحقيقه من تحصيل تربوي، إذ إن الجو العام للمجموعة تنعكس أهميته على كل فرد من أعضائها [14] ص456.

وليس غريبا أن يشكل الجيران نسبة هامة من أصدقاء كل فرد منا، وأثبتت بعض الدراسات أن الجيران يأتون في طليعة لائحة الأصدقاء ويشكلون نسبة هامة إذا ما قورنوا بباقي الأصدقاء، ومن شأن التقارب المكاني بين الأشخاص أن يسهل تكرار احتكاكهم ببعضهم البعض الأمر الذي غالبا ما ينشأ عنه لدى هؤلاء الأشخاص شعور بالألفة مما يزيد من احتمال تطور هذه العلاقة إلى مستوى الصداقة.

إن شعور الفرد بالجماعة ومدى انتمائه إليها يحدد علاقته بها ومكانته فيها وعندما يزداد هذا الشعور تشتد العلاقات التي تربط الأفراد بعضهم ببعض وعندما يقل هذا الشعور تتناقص قوة جاذبية الجماعة للأفراد وقد تصل إلى الانحلال والزوال [15] ص25.

2- تأثير الجماعة المرجعية على سلوكات وتصورات التلميذ المراهق: تتسع دائرة علاقات المراهق الاجتماعية وتتنوع حيث ينضم إلى جماعات الأقران والرفاق ويشارك في نشاطاتها ويتأثر بقيمها ومعاييرها وأهدافها ويتعصب لمناصرتها ويميل المراهق من خلال مشاركته في أنشطة الجماعات التي ينتمي إليها، إلى إثبات شخصيته وتحقيق ذاته [16] ص301، فبانتسابه إلى جماعة مرجعية "تلك التي يتخذها الفرد نموذجا يقتدي به ويوجه سلوكه وأنماط حياته على أساسه، سواء كان الفرد جماعة مرجعية بالفعل أم كان لا ينتمي إليها مباشرة ولكنه متأثر بمظاهرها وقيمها ويتمنى أن ينتمي إليها" [15] ص571.

فهي جماعة يرجع إليها الفرد في تقويم سلوكه الاجتماعي، ويسعى إلى أن يربط نفسه بها، أو يأمل في ذلك، فهي موضع الاحترام والاعتراف. كما أنها موضع انتماء وجاذبية لديه، وفيها يلعب الفرد أحب الأدوار إلى نفسه وأكثرها إشباعا لحاجته، هذا ويتأثر سلوك الفرد بالجماعة المرجعية تأثرا واضحا كما أنه يشارك أفرادها في اتجاهاتهم وقيمهم ودوافعهم الاجتماعية ومستوى طموحاتهم وأيضا أدوارهم وعاداتهم وسلوكهم الاجتماعي [17] ص24، فبعدما كانت الأسرة المكان الذي يتشرب منه المراهق قيمه الاجتماعية والثقافية وخبرات الحياة، أصبحت الجماعة المرجعية تشبع رغباته ومطالبه النفسية والفكرية والاجتماعية، وفي نفس الوقت الذي تعرف علاقته بأسرته تغيرا، يتفتح المراهق على عالم أكثر اتساعا ذلك الذي يتخذ فيه الرفاق مكانا مهما، مجموعة الرفاق من نفس السن تشكل في هذه المرحلة عناصر فعالة للتنشئة، إذ إن وظائفها تعتبر تكميلية، عكس تلك المتعلقة بالجماعة العائلية، تسهل على إثرها تطور علاقات الصداقة، وقد كتب كولي Cooley قديما وجورج ميد حديثا عن "الآخر" وعن "تماثل "دور الآخر" في تفسير التصور الذاتي للفاعل وفهم سلوكه الاجتماعي، وهناك فارق بين الجماعة المرجعية بهذا المعنى، والجماعة العضوية التي ينتمي إليها الفرد بالفعل [11] ص378، فجماعته المرجعية تكسب أدوارا اجتماعية وسلوكات لم يتح له تعلمها في الأسرة.

ومما يجدر تأكيده في أن المؤثرات الاجتماعية يظهر أثرها واضحا في الأفراد والمواقف الاجتماعية الحقيقية، وهذا يصدق كثيرا في الحياة المدرسية التي يتجلى أثرها فيما تتيحه للطلبة من القدرة إلى أن يكشفوا عن قدراتهم ودوافعهم وجوانب نشاطهم وهذا بدوره يجعلها تؤثر وتتأثر ببعضها [14] ص456، وعليه فجماعة الرفاق تعمل على تنشئة التلميذ اجتماعيا ومن خلال نقل قيمها ومعاييرها التي تؤثر في سلوكات وشخصية التلميذ فهي: تلك الأساليب التي تتبناها جماعة الرفاق المدرسية فيما بينها وأنماط السلوك التي تعامل بها أفرادها وهي بمثابة نماذج للتنشئة الاجتماعية، بمعنى قواعد التعامل المشتركة بين أفراد الجماعة تضبط سلوك أفرادها وموقفهم ورد فعلهم"[04] ص17، كما يتحرر المراهق من خلال هذه الجماعة من ضغوط أسرته وقيود المدرسة، حيث تتبلور من خلالها مواقفه ورؤاه للجنس والمال وقيمة التعليم، وتناول مواضيع لا يستطيع المراهق الحديث فيها في أسرته، فتفاعل المراهق معها يجعله أكثر اتصالاً بالآخرين مما يولد لديه سلوكات ومواقف اجتماعية "ويراد بالموقف الاجتماعي هنا إتاحة الفرصة للدوافع السلوكية للتعبير عن ذاتها بحيث يؤثر السلوك الصادر عن فرد ما في سلوك آخر أو آخرين، كما يتأثر تصرف ذلك الفرد بتصرف من يحيطون به ويؤلفون بيئته الاجتماعية[14] ص456، فيحاول المراهق إظهار الولاء لهذه الجماعة، في حين إنه يميل إلى مقاومة السلطة الوالدية والمدرسية ويظهر

ذلك في رفض المراهق لأوامر الوالدين والمعلمين إذا اصطدمت بأوامر الثلة، وينتقد الوالدين وأسلوب حياتهما وطريقة تفكيرهما. ويعبر المراهق الولد عن تمرده بالعداء أو الخروج من المنزل، أما البنت المراهقة فهي أكثر قبولاً للسلطة الوالدية.

الجماعة المرجعية بهذا المعنى تؤدي وظيفتين أساسيتين: فهي مصدر القيم والمعايير والمستويات السلوكية للأفراد وهي تضع الأساس للمقارنة المستمرة بين ما يعيشه الفرد وما يطمح إليه ويرغب فيه [11] ص378

يقارن المراهق نفسه بغيره في محاولة اللحاق بالآخرين أو التفوق عليهم، الميل إلى الجنس الآخر والاهتمام به: يتحول المراهق من النفور من الجنس الآخر إلى الميل إليه والاهتمام به، وهناك ظاهرة تعرف باسم ثقافة المراهقين وهي ثقافة فرعية تتواجد كظاهرة في الثقافة الغربية المتحضرة... [08] ص605، ويظهر ذلك في محاولته جذب الانتباه إليه عن طريق أناقة المظهر الشخصي أو امتلاك أشياء مثيرة خاصة إذا تعلق الأمر بتكنولوجيا الهاتف النقال، وما تعرضه شركات الهاتف النقال من موديلات حديثة مزودة بأحدث التقنيات، ويظهر كذلك في طريقة اللباس واتباع الموضة التي اهتم علماء الاجتماع وعلماء النفس الاجتماعي بدراستها، إذ يعد روبرت بييرستد R. Bierstedt (النظام الاجتماعي العام، نيويورك 195، **ص** 203) من بين الذين يتبنون منظورا خاصا في دراسة الموضة، فالفرد في رأيه يسعى إلى إيجاد التوازن بين مطالبه الشخصية، والمطالب المجتمعية، حيث يكون هناك ميل لدى الناس أن يكونوا في موقف مشابه لرفقائهم وأقرانهم في نفس الوقت الذي يهتمون فيه بوجود فوارق بينهم وربما كان السبب الأساسي في امتثالهم للمعايير أنهم يحققون نوعا من التوحد مع جماعتهم، لكنهم في الوقت ذاته يرغبون في التعبير عن فرديتهم المتميزة، والموضة هي وسيلة مفيدة في الوفاء بهذه الرغبات المتعارضة [11] ص185، حاجة المراهق إلى الانتماء هي التي تقوده إلى الانضمام إلى الأقران وتتناقص الحاجة إلى الإنجاز مع الانتماء. ولها تأثيرات معاكسة على السلوك والإنجاز تجعلنا نندمج في النشاطات التي تزودنا بالخبرة المكتسبة من أجل كفاءتنا الخاصة مما يمكننا ولا يمكننا عمله [08] ص 617، كما أنها تكسبهم القيم والاتجاهات الخاصة باحترام الذات والثقة بالنفس والقدرة على الاتزان الانفعالي، فهناك اختلافات في سلسلة دراسات James Cleman (1965- 1961) بواسطة إحصائه لتلاميذ المدرسة الثانوية وموافقتهم وتعليماتهم المتطابقة مع ما هو متعارف عليه شعبيا ووجد أن الأخلاق المسيطرة على المدارس الثانوية هي قضاء وقت سعيد واستبعاد ما دون ذلك وما قاله لكولمان هو أن كرة القدم والشهرة والمظهر الأنيق أفضل من التحصيل العلمي [08] ص619.

أما بالنسبة إلى أبرز العوامل التي تجعل بعض الأفراد يتخذون من الجماعات مرجعية يقيسون مدى صواب تصرفاتهم ومواقفهم على أساس قيمها ومعاييرها فإن ذلك يرتبط في الواقع برضا الفرد واعتزازه بالجماعة التي ينتمي إليها" [16] ص 571، فهي تهيئ للفرد وسطا اجتماعيا يشبع حاجاته ويمارس تأثيره الإيجابي في هذا الوسط.

- كما تساعد على نشر قيم التنافس والتعاون من خلال تفاعله وممارسة نشاطاته مع الجماعة.

ففي دينامية الجماعة المدرسية يستجيب الفرد لقواعد الجماعة وهو يستجيب لها راضيا طالما أنه يحس بأن نظام الجماعة يسري أثره على كل فرد فيها، وأن الالتزام بنظمها نابع من صميم الذات الفردية، فهو يشعر بقيمة عضويته، وهو يرتبط بالجماعة ارتباطا وثيقا وأنه يدرك بأنه سيخسر اعترافها به إن هو اشتد في الخروج على قواعدها [14] ص466، يذكر سبروت 1964: "أن الأفراد يتأثرون تأثرا شديدا في سلوكهم عندما ينضمون بعضهم إلى بعض في شكل جماعات متعاونة أو متنافسة "ولكنه يؤكد بعد تبيان هذا الرأي أن أثر التعاون على انسجام الأفراد أكثر إيجابية فحينما يعمل الأفراد على شكل جماعة متفاوتة متكاتفة يحاولون بذل جهود أوفر حيث يشعر كل واحد منهم بروح الفريق وهم يحسون بطعم البهجة [14] ص467.

لا جدل أن كل فرد يتأثر بالتفاعل الاجتماعي. وينبغي ألا ننسى أن دافع النزعة الاجتماعية متأصل في طبيعته إذن فهو يطلع إلى مثل هذا التفاعل لنمو شخصيته وتكاملها، ولا شك أنه كلما اتسع نطاق التفاعل الاجتماعي وكلما غزر في مداه كانت الشخصية أثرى بخبراتها وتكوينها.

ليس ذلك فحسب فإن التلميذ المراهق قد يشكل تصورات تنعكس على سلوكه حول السلوكات غير المتفق عليها من قبل أفراد المجتمع مثل الهروب من المدرسة والتدخين والغش في الامتحان والجرائم الصغيرة مثل السرقة، يتعلمها المراهق من جماعته المرجعية، كما أنه يتعلم فيها ويبني تصورات حول كيفية التعامل مع الجنس الآخر، ومواضيع الجنس، التي لا يستطيع تداولها في أسرته، فهو يجد نفسه أكثر تحررا من القيود والضوابط الموجودة في الأسرة.

فالباحثون باختلاف مشاربهم يميلون إلى تأكيد أثر الجماعة على نشأة الفرد، فأريك فروم Fromm 1942م – 1956م) يتحدث عن قيمة تطبيق سيكولوجية الجماعة وديناميتها على تطور الفرد، سواء في الحقول التربوية أم الصناعية والعلاجية، إذ بانضمام الفرد إلى مجموعات صغيرة فإن الجهود تتعزز والعمل يتسنى ومستوى النشاط يرتفع، فهو يقول: "ما لم

يضمن الفرد أنه ينتمي إلى مجموعة، ما لم يتأكد أن حياته ذات معنى وقيمة واتجاه، فإنه يصبح يشعر بأنه يشبه بذرة في غبار، تكاد نفسه تنسحق لإحساسه بالفراغ" [14] ص 468.

ومن الآليات التي تعتمدها الجماعة المرجعية للتلميذ المراهق والتي تؤثر من خلالها في سلوكاته وتصوراته الاجتماعية اعتمادا على التنشئة الاجتماعية ما يلي:

-الثواب الاجتماعي والتقبل عندما يتفق العضو مع معايير الجماعة وقيمها مما يعزز هذا السلوك ويدعمه.

-العقاب والرفض الاجتماعي في حالة مخالفة العضو في سلوكه لتلك المعايير الجمعية، لكي يكف أو يتوقف عن مخالفته لها وتخطي سلوكه المخالف.

-المشاركة في النشاط الاجتماعي مما يتيح فرصا للتعلم الاجتماعي.

-التقليد والمحاكاة أي الاقتداء بأعضاء الجماعة في التفكير والكلام والسلوك والعادات والهوايات خاصة من أصحاب الخبرة.

خاتمة:

وعليه فإن التلميذ ينشأ بين مؤسستين اجتماعيتين تربويتين هامتين وهما الأسرة والمدرسة لكل منهما أثر فعال في تكوين شخصيته، وفي تشكيل تصوراته الاجتماعية التي تنعكس على سلوكاته وتفاعلاته الاجتماعية، ولا غنى لواحدة فيهما عن الأخرى إذ وجب على القائمين عليها التعاون، ولا يتم ذلك إلا إذا استوعبت كل واحدة منهما دورها في التنشئة الاجتماعية على أسس علمية وأدركت واجباتها وكيف تتكامل مع الأخرى دون أن يخلق ذلك صراعا في الأدوار الاجتماعية.

وعليه فإن تشكيل السلوك وتكوين التصورات الاجتماعية عند التلميذ المراهق يتأثر بأساليب وأنماط التنشئة الاجتماعية والضبط الاجتماعي لكل من الأسرة والثانوية الجماعة المرجعية.

الهوامش:

1. وفيق صفوت مختار، "المدرسة والمجتمع، والتوافق النفسي للطفل"، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، (2001).

2. عبد الباري محمد داود، "التنشئة السياسية للطفل"، دار الآفاق العربية، القاهرة، (1999).

3. غالب مصطفى، "علم النفس التربوي"، دار مكتبة الهلال، بيروت، (1980).

4. عامر مصباح، "التنشئة الاجتماعية والسلوك الانحرافي لتلميذ المدرسة الثانوية"، دار الأمة، الجزائر، (2003).

5. الجسماني عبد العلي، علم النفس وتطبيقاته الاجتماعية والتربوية، الدار العربية للعلوم، ط1، بيروت، (1994).

6. عدس محمد عبد الرحيم، "المدرسة وتعليم التفكير"، دار الفكر، ط1، عمان، (1996).

7. جورج الخوري توما، سيكولوجية الأسرة، دار الجيل، بيروت، (1988).

8. واطسون روبرت وكلاي ليندجرين هنري، تر: عزت مؤمن داليا، سيكولوجية الطفل والمراهق، مكتبة مدبولي، القاهرة، (2004).

9. دورون رولان وبارو فرانسوا، تر: شاهين فؤاد، "موسوعة علم النفس"، منشورات عويدات للنشر والطباعة بيروت، المجلدF-P، ط 1، بيروت، (1997).

10. بدوي أحمد زكي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، إنجليزي فرنسي عربي، مكتبة لبنان، بيروت، (1988).

11. غيث محمد عاطف، دراسات في علم الاجتماع، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، (1985).

12. عبد الحميد آمال وآخرون، "الانحراف والضبط الاجتماعي"، دار المعرفة الجامعية، ط1، الإسكندرية، (2000).

13. الجوهري عبد الهادي، "معجم علم الاجتماع"، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 1999

14. الجسماني عبد العلي، علم النفس وتطبيقاته الاجتماعية والتربوية، الدار العربية للعلوم، ط1، بيروت، (1994).

15. إبراهيم نجم ضياء الدين، "الجماعات الاجتماعية مداخل نظرية ومواقف تطبيقية"، المكتبة الجامعية، الإسكندرية، (2000).

16. يحياوي محمد جمال، دراسات في علوم النفس: علم النفس العام، مناهج البحث وتصميم البحوث، علم النفس والنمو، علم النفس الصناعي، علم النفس الاجتماعي، علم النفس التربوي، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، (دون سنة).

17. عكاشة محمود فتحي، زكي محمد شفيق، المدخل إلى علم النفس الاجتماعي، المكتب الجامعي الحديث، القاهرة، (1997).